يمنى العيد

العدوان.. في الوجدان

من المناسبة إلى التاريخ

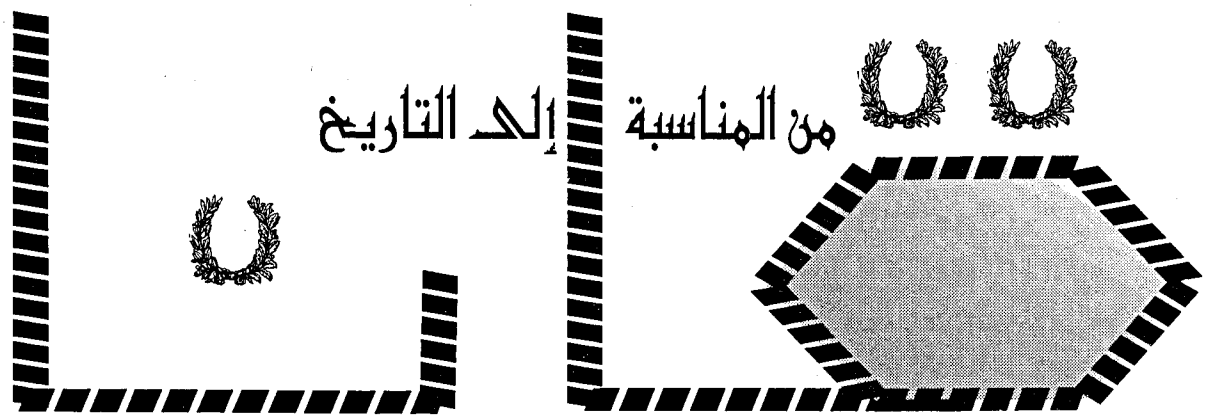

لم أكن أعرف الجنوب. فالوطن في بلدي هو المكانُ المنسوب إلى الطائفة. وهذا المكان هو القرية، أو الحيّ، وهو الطريقُ الذي يصل بنا إلى بيتنا، والدكّانُ الذي نشتري منه خبزنا، وهو هذه الفسحة من شاطئ البحر التي نختزل فيها العالَم، وهو المدرسةُ والمقبرةُ ومكانُ العبادة الذي نتوجّه فيه إلى إله واحد ونظنّ أنّه إلهٌ لنا وحدنا.

لم أكن أعرف الجنوب، ولم أكن أشعر بأنّه وطني. فالأسماء في أعرافنا معاني في الموقف والانتماء، والزيُّ علامةٌ في الجغرافيا والحدود، واللهجةُ فاصلةٌ في المواطنيّة. هم طائفة ونحن طائفة. هم ملّةٌ ونحن ملّة. هم قوم لهم ما لهم ونحن قوم لنا ما لنا؛ فلا زواج بين الأسماء يولد منه الحرفُ الجديد، ولا قرابة في الزيّ تكسرُ رتابة اللون، ولا تزاور بين اللهجات يبثّ في لغتنا الحياة.. وفي النهاية لا أبناء يعيشون ويعملون لوطن واحد.

بعيداً كان هذا الجنوبُ القريبُ، وغريباً عن كلّ مَنِ اختلف عن أهله في هويّة دبّجتها، ذاتَ يومٍ، دوائرُ من زمنٍ حاكِمةٌ مستبدٌّ وسيّدُه مستعمِرٌ. الأوّل يتوسّلُ الدّين سبيلاً إلى سلطته فيحشر الوطن في أتون الطائفة، والثاني يبني قواعد لشعاره المأثور: «فرّقْ تَسُدْ»، فيشعل نارَ الصراع والحروب بين من يستظلّون سقفاً واحداً.

***

لم أكن أعرف الجنوب،

وكانت الحربُ مناسبةً حملت هذا الجنوبَ إلينا فَذَهَبْنا إليه. وَضَعَتْهُ أمام ناظرنا، وطرحَتْهُ سؤالاً على ضميرنا، ففسحنا له مجالاً واسعاً في قلوبنا وعقولنا.

جميلاً وجدناه.

وقوياً تعرفنا إليه.

بهيّاً وجدنا جنوبَ وطننا الذي أغلقتْ إسرائيلُ بوّابته عند حدود ادّعَتْها لها، فأقفلتْ ممرّاته إلى فلسطين، فدخل عزلته، تغرُّب... وتغرُّبنا عنه.

وقبل عشرين سنة بدأت الحرب.

يا لَبُؤْسِ المناسبة التي دعتنا لمعرفة الجنوب.

يا لبؤس الحرب التي حرّكتْ ضمير النحن وجمعت الأنا إلى الأنا!

ففي زيارة معونة قام بها الصليب الأحمر اللبناني رافقتُ السيّدة سُمَيّة جنبلاط إلى «شبعا»، وكان التماسُ الأوّلُ لي مع عمق الجنوب ودفء أرضه الفوارة بالعطاء:

«شبعا»، القريةُ المتوهّجة على حدود النّار بغابة من أشجار الكرز. أناسٌ يعشقون الأرض، يعطونها تعبَ العمر وأكسيرَ الروح، فتتعالى الخضرةُ موشومةً بمذاقٍ سريّ للحياة...

وكذراعيْن عملاقين شاهدتُ الوادي يحتضن في انبساطه الرقيقِ آخرَ خيوطِ النهارِ. كان يغفو ولا ينام، يحرس مياه نهر تمدّ إسرائيل يَدَها خِفيةً إليه.

من أين للجنوب كلُّ هذه الأبّهَةِ المترفِّعةِ على ما اصطُلح بتسميته: فَقْر الأطراف!

من أين لهذا الطُّرَفِ كلُّ هذا البهاء المتعاطف مع ثراء الأرض وكرم الناس!

وكيف لم نكن نعرف هذا الوطن إلاّ كدائرة صغيرة على الورق، إلاّ كمجرّد اسم في الكتاب المدرسي السقيم!

تساءلتُ، وقلتُ: ربّما لأنّ الجنوب في تصنيفنا المعروف هو الجنوب فحسب، وليس موصوفاً بالجبل الأشمّ أو الضيعة الجميلة، شأنَ غيرهِ من الأماكنِ في لبنان. ربّما لهذا بقي لا يجذب سكّان مدينتي إليه، وبقي الذهابُ إليه زيارة؛ والزيارة هي للأهل عادة، ولا أهلَ عندنا خارج المِلّة أو خارج العائلة والعشيرة.

***

نعم. كانت الحرب مناسبة جاءت بهذا الجنوب إلينا فذهبنا إليه كي يبقى لنا.

لكنّنا صرنا نذهب كي نخلص من هذه المناسبة، كي نحرّر ذهابنا منها فلا يرتهن بها.

صرنا نذهب بغيةَ أن يستعيد زمنُنَا ما حُرِمَ منه، ونرفع الغربَة التي سكنت خلايانا.

ولم يكن ذلك صعباً، فدراستنا في الجامعة اللبنانية هيَّأتْنا لاستعادة هذا الزمن. كانت هذه الجامعةُ بمثابة الوطن الصغير، أو الصورة المصغّرة لوطن المستقبل الكبير الذي رحنا نحلم به. فيها اجتمعنا مختلفين، وفي مناخها كان وعينا يستيقظ خارجَ دائرة الطائفة وأبعدَ من حدود البيت المغلق على المِلّة. وعندما خرجنا للعملِ في مؤسسات الوطن أخذت الروابطُ بيننا تتنوّع، وجسورُ الحوار تنبني حول ما هو مشترك في العيش وتجادِلُ في ما هو حقوق لنا وفي ما هو واجبات علينا.

هكذا صرنا نذهب إلى الجنوب رغبةً في أن تتحوّل المناسبةُ إلى تلاقٍ به يكون الوطنُ على صورةٍ ما يَجمع، وتكون المقاومةُ مقاومةً بأكثر من وسيلة.

كان ذلك قد بدأ قبل أن تحتلّ إسرائيلُ الجنوبَ، وكان أن ذهبنا إلى كفرشوبا، وديمر ميماس، ومرجعيون، والخيام و... جلسنا ذات يومٍ تحت شجرة التين عند دردارة حسن عبد الله. رأينا القلق في العيون: قلقاً على الحياة والأرض والمصير.. وراح الشعر يحاورُ خيراتِ السهول ونقيقَ الضفادع، ويضع التحيَّةَ، للباقين هناك، على حفافي النوافذ وعتبات البيوت.

الشعر ينسج للمعيش ذاكرةً.

والحاضر يدق أبوابَ التاريخ الغافي على الماضي.

***

وفوق هذه الجبال المتعالية بصلابةٍ هي من أزلية الزمن وديمومته... فوق هذا المكان، كانت المقاومة تنهض.

كانت المقاومة تتشكّل في إجماع هو أكثر من طلقة، وأقوى من كلمة. ذلك أنّه وعي يتأسّس على قاعدةٍ ما هو مشتركٌ في الانتماء إلى وطن، ويترسّخ في معاني التحرّر والكرامة، وفي ما هو اجتماعي – وطنيٌّ، حدُّه الأوّلُ ينطوي على ما للمواطن من حقوقٍ، وحدُّهُ الثاني يشير إلى ما عليه من واجبات. وبين هذين الحدّين برز السؤال العملي:

كيف نُقاوم؟

سمعته، وكان ذلك في بداية الحرب، يصدُرُ عن امرأةٍ هي زوجةٌ لرجل يعمل في الحقول، وأمٌّ لأطفال يسابقون بنموهم مشاتلَ الزرع وبراعمَ الشجر.

في ما بعد، حين حصل الاجتياحُ الإسرائيلي للجنوب، كانت المبادرة العفوية: مبادرةُ امرأةٍ في بلدةٍ «معركة» غَلَتِ الزيت وَدَلَقَتْهُ على الجنود الذين احتلّوا أرضها.

هذه المبادرة العفوية جاءت جواباً من المرأة الثانية على

المرأة الأولى. جاءت بعد خمس سنوات تقريباً. ولكنها لم تُلغ السؤال. ولم يكن لهذا الجواب أن يلغي ذاك السؤال، لأنّه سؤال يحيل على حَق المدنيين في الحماية... دون أن تعني الحماية مساساً بمبدإ المقاومة أو بمعناها، أو بضرورة تحوّلها إلى حالة شعبية عارمة. كان السؤال ليعطي المقاومة بُعْدَ الحفاظ الواعي على حياة النّاس، باعتبار هذه الحياة بعداً يجذّر ديمومة هذه المقاومة، وينوّع سبلَهَا.

أين نحتمي نحنُ الأمهات، ونحن الأطفالَ، ونحن الشيوخَ حين ينهال حقدُ العدوّ على بيوتنا ولا ملاجئ لنا تحمينا؟

ما جرى في «قانا»، بعد أن ظنّ الكثيرون بأنّ الحرب، حربَ إسرائيل علينا، انتهت، كان مناسبةً طَرَحَتْ، من جديد، السؤالَ الأوّل، السؤال نفسه الذي صدر عن تلك المرأة الجنوبية في بدايات الحرب.

لكنّ السؤال جاء هذه المرّة ليحيل على شيء آخر. جاء حاملاً فيه الجوابَ. وهو جوابٌ لا يحتمل المواربة، جوابٌ يقول بأنّ الملجأ، على أهميته وضرورته، لم يعد هو الموضوع بل إنّ الموضوع هو:

أنّ الجيش الذي يسمّي نفسه جيشَ دفاعٍ هو جيشٌ يقتل عن قصد أكثر من مئة مدنيّ لجأوا خائفين إلى مكان تحميه هيئةٌ عسكريةٌ تمثّل أُمَمَ العالم.

السؤال هذه المرّة لم يتوجّه إلى الحرب كواقعٍ ويستعلم عن سبلِ التعامل معها، عن مقاومتها، بل ذهب مباشرةً إلى السبب، كَشَفَ الحقيقة: كَسَرَ قيودَ الإعلام، وفكّ الحصار عنها.

السؤال هذه المرّة دعا العالم كي يرى أنّ جيش الدفاع هو جيش اعتداء، وأنّ مَنْ يدّعي الدفاعَ عن أمن شعبهِ لا يتورّع عن ذبحِ شعبٍ آخر، كأنّ الحياة هي حقٌ وحيد له.

ومع هذا، وسببٍ من كل هذا، طرح السؤال – الجواب، سؤالَهُ علينا:

كيف تركنا للمناسبة، لقانا المجزرة، أن تقدّم الجوابَ الذي كان علينا أن نظهره بدونها؟

***

كانت الحربُ مناسبةً كي نعرف الجنوب.

كانت مجزرة قانا مناسبة كي ننقل إلى العالم صورةً عن حقيقة ما يسمى بجيش الدفاع.. كي يَعرف بأنّ الحرب اعتداء علينا.

فيا لبؤس المناسبة!

ويا لبؤسنا إن لم نَسَعْ إلى المعرفة في أمكنة أخرى: في المدرسة والكتاب، في الممارسة اليومية، في مؤسسات العمل، في منابرنا الثقافية، في الحوارات الديمقراطية، في النقاش الهادف، في التعبير الحرّ، في احترام اختلاف الآخر عنّا – في القبول بتنوّع مصادر المعرفة.

يا لبؤسنا إنْ لم نرفض أن تُوضع ضحايا قانا، أطفالنا ومواطنينا الأبرياء، في أيّةِ معادلة. ذلك أنّ ما جرى في قانا يجب أن لا يعادله ثمنٌ أو يمحوه زمنٌ.

يا لبؤس وطننا إن لم نسأل: كيف يمكننا أن نجتاز المناسباتِ إلى الأسباب، ونرفع الأغطيةَ الصدئةَ عن الحقائق المطمورة تحتها.

مجزرة قانا حلقةٌ في سلسلةٍ بدأت منذ قيام إسرائيل، من طَرْدِ شعبٍ عن أرضه، من أسطورةٍ تقول بشعب اللّه المختار، وبدولة لليهود من الفرات إلى النيل.

لنسأل:

كيف تترابط حلقاتُ الاعتداء والحروب علينا؟

كيف نعبر المناسبة إلى التاريخ؟

كيف نكشف منطقَ الصدفة؟

كيف نفك الحصار عن الحقيقة؟

كيف يصير الوطنُ خارجَ الطائفة وأوسَع من الحيّ والدكان؟

متى يولد الحرفُ الجديدُ ونعمل جميعاً لوطننا الواحد؟

بيروت